**جامعة عبد الرحمن ميرة بجاية**

**قسم اللغة والأدب العربي**

**السنة الأولى ماستر**

**المحاضرة الرابعة**

**الشعر الديني تابع**

**المديح النبوي – مفهومه ومبناه**

يعدّ المديح من أكثر  الفنّون الأدبية شيوعا الّتي مال إليها معظم الشّعراء، ونظموا فيها القصائد الكثيرة؛ الّتي تعدّد مآثر الفرد أو الجماعة، مَهمّة الشّاعر فيه هي إرضاء الممدوح، بل تتعدّى ذلك إلى القبيلة، أو الّتيار السّياسيّ أو الدّينيّ، وهو بيان لجميل المزايا، ووصف للشّمائل الكريمة، وإظهار للحبّ والتّقدير الشّديد الّذي يكنّه الشّاعر لمن توافرت فيه تلك المزايا والشّمائل وما يتعلّق بها من أخلاق وصفات ومناقب، وهو كما يعرّفه الدّكتور زكي مبارك: “**فنّ من فنون الشّعر الّتي أذاعها التّصوّف، ولون من ألوان التّعبير عن العواطف الدّينيّة، وباب من الأدب الرّفيع لأنّها لا تصدر إلّا عن قلوب مُفعمة بالصّدق والإخلاص**.

[المديح النبوي](https://www.blogger.com/null)، هو شعر وجداني ذائع الشهرة الذي يهتم بمدح رسول [الإسلام صلى الله عليه وسلم](https://www.blogger.com/null)، بتعداد صفاته الخُلُقية والخَلقية وإظهار الشوق لرؤيته وزيارته والأماكن المقدسة التي ترتبط بحياته، مع ذكر معجزاته الماديّة والمعنويّة ونظم سيرته شعراً والإشادة بغزواته وصفاته [والصلاة عليه](http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%84%D8%A7%D8%A9_%D8%B9%D9%84%D9%89_%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%A8%D9%8A) تقديراً وتعظيماً. فهو " فن من فنون الشعر التي أذاعها التصوف، فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية، وباب من الأدب الرفيع؛ لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص

وغالبا ما يتداخل المديح النبوي مع قصائد [التصوف](http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B5%D9%88%D9%81) وقصائد [المولد النبوي](http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%88%D9%84%D8%AF_%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%A8%D9%88%D9%8A). وۥيظهر المادح في هذا النوع تقصيره في أداء واجباته الدينية والدنيوية، ويذكر عيوبه وذنوبه في الدنيا، مناجيا الله بصدق وخوف مستعطفا إياه طالبا منه التوبة والمغفرة. وينتقل بعد ذلك إلى الرسول (ص) طامعا في شفاعته يوم القيامة.

      وقد يتساءل الكثير منا عن البداية الحقيقية لهذا الغرض الشعري ونشأته، وأهم أعلامه في عصر صدر الإسلام حينما كان رسول الله على قيد الحياة، وأهم ما قيل في مدح خاتم الأنبياء والمرسلين آنذاك، وهذا ما سنجتهد في كشفه وبيانه في هذه الورقة البحثية الموجزة، متبعين في ذلك المنهج الوصفي التحليلي التاريخي.

**2- نشأة المديح النّبويّ وبداياته**

     بما أنّ الرّسول (ص) يمثّل نقطة تحَوُّل في حياة البشريّة عامة، فقد حظي باهتمام كبير في أدبنا العربيّ شعرا ونثرا على حدِّ سواء، وقد رسم الشّعراء ملامحه وأخلاقه في أجمل صورها.

**1. عصر ما قبل البعثة:**

الّذي يبحث في سيرة رسول الله، تّضح له أنّ الانطلاقة الحقيقيّة لهذا الفنّ- وإن لم تكن تُعرَف بهذا الاسم – كانت مع عبد المطّلب جدّ رسول الله؛ الّذي شبّه لحظة ولادته بالنّور قائلا:

**وأنـــت لـــمّا وُلِـــدتَ أَشـرَقــت     الأرضُ وضــاءت بنــوركَ الأفــقُ**

**فنـحن في ذلك الضّيـــاءٍ وفــي    النّــورٍ وسبـــلٍ الرّشـــادٍ نخــــترقُ**

      كما مدحه أثناء طفولته حينما أخذه معه فأدخله في جوف الكعبة، فقال وهو يعوّذه:

**الحَــمــد لله الّــــذي أعطــــــــــــــــانــي        هــــذا الغـــلام الطيّــب الأردان**

**قـد ســــاد في المهد على الغــلـمان    أعـيذه بالبــيــت ذي الأركـــان**

**2-2. عصر ما بعد البعثة:**

      مجيء الإسلام أحدث تغييرا كبيرا في مختلف مجالات الحياة في شبه الجزيرة العربيّة؛ حيث تهذّب الشعر وارتقى في مضامينه، ولكن مع هذا انقسم الشّعراء إلى فرقتين؛ فرقة لم تتقبّــل فكرة الدّين الجديد، وتهجو رسول الله وأصحابه، بقيادة شعراء الكفر والشِّرك، وعلى رأسهم خاصّة: “**عبد الله بن الزّبعري**” و”**أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب**” قبل إسلامهما وتوبتهما، وفرقة أخرى ذاقت حلاوة الإيمان، وتمدح النّبيّ (ص) وعلى رأسهم: **حسّان بن ثابت (شاعر الرّسول)، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك،** إضافة إلى لامية **كعب بن زهير** المشهورة الّتي سال حبر كثير عنها

     وكان حسّان شاعر الرّسول، ومن أولى قصائده الّتي يهجو فيها أبا سفيان بن الحارث؛ يقول

**هَـجَوتَ محــمّدا وأجبْـــــــــــــــتُ عــنه         وعنــــد الله فــــي ذاك الـجَـــــــــــــزاء**

**أَ تهجوه ولســـــــتَ له بكُـــــــــــــــــــفء         فشَــــــرُّكما لخَيــــــركُـما الفِــــــــــــــداء**

أمّا **أبو طالب**؛ فقد مدحه في ثنايا لاميته المشهورة، وعَدَّ ابن سلام الجمحي هذه القصيدة من أروع ما قال أبو طالب من الشّعر، قائلا : (الطّويل)

**وأبيـــض يُستســــــــــــــــــقَى الغمام بوجهه        ثمـــال اليتـــــامى عصــــــــمة للأرامل**

**يــلوذ بها الهــــــــــــــــــلاك مـن آل هاشم        فــهم عنده في نعمــــــــــــــة وفـــواضل**

**العصر الأموي**

في العصر الأموي، امتزج المديح بالتيارت السياسية، وبعضها يدعم الأمويين وبعضها الآخر يؤيد فرقًا مختلفة، وكان مداحو الأمويين يتكسبون بمدائحهم، بينما تجرد شعراء الفرق المختلفة اتخذوا من مدائحهم وسيلةً للانتصار للمذاهب، مثل الشيعة ومُحاربة ً خصومه، مثل الزبيرين وغيرهم. أدت هذه الظروف والأحداث إلى خفوت المديح النبوي فبدأ أن يضمحل المديح النبوي في هذا العصر. ومن الشعراء على هذا المنوال الفرزدق ، والكميت، ودعبل الخزاعي ، وأشهرهم الفرزدق.

**العصر العباسي**

مضى المديح النبوي كما كان على نحو ما في العصر الأموي وإن تفاوتت فيه الصور والظروف. ومن أشهر الشعراء هذا العصر،مهيار الديلمي له عشرات من القصائد في مدح أهل البيت والرسول (ص) وصفاته الحميدة، والشريف الرضي، وابن الفارض. ومن قوله :

**أرى كل مدح في النبي مقصرا     وإن بالع المثنـــى عليه وأكثرا**

**إذا الله أثنى بالذى هو أهــــله     عليه فما مقدار ما يمدح الورى**

**شعر المديح النبوي في الأدب المغربي والأندلسي:**

كان الشعراء المغاربة سباقين إلى الاحتفال بمولد النبي (صلعم) وتعداد مناقبه الفاضلة وذكر صفاته الحميدة ومن أهم الشعراء المغاربة **مالك بن المرحل** الذي يقول في إحدى قصائده

**محمد خير العالميــن بأســرها**

**وسيد أهل الأرض م الإنس والجان**

أما القاضي عياض فقد خلف مؤلفات عديدة وقصائد أغلبها في مدح الرسول (صلعم) ولسان الدين بن الخطيب

**عصرالدويلات وعصر البوصيري**

تحول المديح النبوي إلى مصطلح أدبي، واستوى على سوقه في عصر الدول والمملوكي والإمارات المتتابعة ، وتحديدًا في القرن السابع الهجري، حيث لجأ الشعراء إلى استرجاع السيرة النبوية والتغني بالشمائل التي تميز بها الرسول (ص). وكان من أهم الأسباب السياسية والاجتماعية والنفسية لظهورها في هذا القرن أنه شهد من الحوادث والمتغيرات ما لم يشهده قرن قبله؛ فقد اجتاح التتار الشرق الإسلامي فدمروا البلاد وأهلكوا العباد وقضوا على الخلافة العباسية في بغداد سنة 656هـ .

فتفشى الفساد بين الطبقات الحاكمة، وعانى الناس كثرة الضرائب، فانتشر الفقر، وعمَّ الخوف والمجاعة وتنتشر الأمراض فيزداد بلاء المسلمين، والتمس الناس كل وسيلة للحصول على رزقهم اليومي. في هذا الجو المشبع بالآلام وفي تلك الظروف القاسية ازدهرت المدائح النبوية التي تكشف عن رغبة دفينة لدى شعرائها بالعودة إلى المنبع الصافي للعقيدة الإسلامية، حينما كان العدل يظلل جميع المسلمين، فاستعادوا بقصائدهم سيرة الرسول بكل ما تمثله من عدل ونقاء من ميلاده حتى وفاته

.والغريب في الموضوع أن الحكام المماليك وخصوصاً في الدولة الثانية هم الذين ساعدوا على توجه الناس إلى فن المديح النبوي، كما شجعوا على التصوف، واهتموا بالمواسم الدينية على نحو لا مثيل له، هكذا أسهم الشعراء عبر المدائح النبوية في جهادهم المزدوج ضد أعدائهم وملوكهم على السواء، وفاضت دواوينهم بهذه المدائح بصورة واضحة، وصلت أحياناً إلى دواوين كاملة كما حدث مع الشاعر الشهاب الخلوف (829-899هـ) وشعبان الآثاري، وعبد الكريم الصرصري (ت 852هـ)، ومحمد بن أحمد الباعوني، وعائشة الباعونية (866-922هـ). وهذه الأخيرة يمكن أن تكون المرأة الوحيدة في التاريخ الإسلامي، التي بلغ عدد مؤلفاتها ما يزيد عن عشرين مؤلفاً، تدور في أغلبها حول الرسول الكريم، شعراً ونثراً، كما أسهمت في فن البديعيات، الذي نشير إليه بعد قليل.

وأغلب الشعراء في هذه العصور كانوا من المتصوفين ، كما يقول زكي مبارك **"شعر المديح النبوي فن ابتدعه الصوفية"** ولكن نري أن هناك شعراء كثيرون مدحوا النبي (ص) ولم يكونوا متصوفة . لأنّ حب النبي (ص) ومدحه لا يقتصر على فئة أو مذهب أو جماعة من المسلمين فقد اُرسِل النبي (ص) للناس كافة.

لاحظ بعض الباحثين أنه على الرغم من الإسهاب والتفصيل في شعر المديح لصفات الرسول وشخصيته، فإننا نكاد لا نعثر على ذكر وفاته، وكأن الشعراء كانوا يرون أن حياته على هذه الأرض موصولة مستمرة، لم يأت عليها موت، فهم يقفون أمام قبره يخاطبونه مخاطبة الحي الحاضر أمامهم، يسمع خطابهم، وينصت لهمومهم وشكاواهم وأدعيتهم وشفاعاتهم به، هاكم مثالاً من قول الباعونية أمام قبر الرسول الكريم:

يا أكرمَ الشفعاءِ جاريةً لها     قلبٌ يُقَلَّبُ في لظى بُرَحائهِ

ولهُ رجاءٌ في جميلكَ يا هدى    أَمَليْ فَجُدْ كرماً لهُ برجائهِ

وأدِمُ لهُ الإمدادَ يا خير الورى     أبداً ودارِكْ داءَهُ بدوائهِ

واشفعْ إلى المولى بتبليغِ المنى    من جُودهِ الوافي وجمِّ عطائه

وقد ابتدع الشعراء في العصور المتأخرة تقليداً جديداً، تمثل في إرسالهم قصائدهم النبوية لتنشد أمام الروضة الشريفة في المسجد النبوي، وكثيراً ما كانوا يذهبون بأنفسهم إلى هناك تحقيقاً لهذا الأمر، واستجلاباً للبركة، وأملاً في ذيوع قصائدهم تلك بين الناس، ورجاء العفو عن زلاتهم بشفاعة الرسول الكريم. وقد نظم السلطان عبد الحميد قصيدة مديح في الرسول نقشت على الحجرة النبوية الشريفة سنة 1191هـ.

  ويعد البوصيري أستاذ هذا الفن بلا منازع، لا في عصره فحسب، بل في العصور اللاحقة، إذ احتذاه كثير من الشعراء في العصر الحديث مستمدين معانيهم من رائعته "البردة". وكانت البردة نموذجاً مُغايراً تماماً لما كانت عليه العصور السابقة، وهكذا حذا الشعراء حذوه في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم .

**البوصيري، رائد المديح النبوي**

هو شرف الدين محمد بن سعيد،( 1212- 1296م )من أبرز شعراء العصر المملوكي. ولد البوصيري بقرية "بوصير"، ثم انتقل بعد ذلك إلى القاهرة حيث تلقى علوم العربية والأدب فحفظ القرآن في طفولته، وتتلمذ على عدد من أعلام عصره، أعوامه الثمانية والثمانين في القرن السابع الهجري. وقد نظم البوصيري عددًا من القصائد النبوية في مناسبات مختلفة مثل الهمزية، ولكن أشهرها البردة. وله ديوان مطبوع.

**بردة البوصيري**

إسمها " الكواكب الدرية في مدح خير البرية "، هي أشهر القصائد الشعرية في مدح الرسول)ص بعد قصيدة كعب بن زهير. وهي 162 بيتا ، تتألف من أربعة أقسام رئيسة هي : 1ـ مقدمة في الغزل الرمزي 2ـ مخالفة هوى النفس 3ـ المديح النبوي ـ شمائل الرسول ـ منزلته ـ فضله ـ معجزاته ـ إسراؤه ومعراجه ـ جهاده 4 ـ مناجاة الرسول الكريم وطلب الشفاعة منه . مطلعها :

**أمن تذكر جيران بذى سلم  \*\*  مزجت دمعا جرى من مقلة بدم**

**أم هبّت الريحُ من تلقاءِ كاظمةٍ \*\*  وأومضَ البرقُ في الظلماء من إضمِ**

وأُلفت عليها شُروح عديدةٌ ، منها شرح البسطامي الشاهرودي، وشرحُ بدر الدين الغزي ، وشرحُ شيخ زاده ، وشرحُ ابن الصائغ ، وعشرات غيرها. وقد ترجمت إلى لغات مختلفة عالمية ومحلية . وقلده فيها كثيرون من جاء بعده، حتى ظهرت المعارضة والتشطير والتخميس والتسديس والتسبيع و غيرها .

وهناك اختلاف بين المؤرخين في أصل تسميته بالبردة ، "**يقال أن البوصيري أصيب بفالج ، فنظم قصيدته المشهورة وتوسل بها إلى الله ليَشفيَه من مرضه الذي أقعده. فإنه رأى النبي (ص) في منامه ، فأمرَّ عليه يدَهُ ، وخلعَ بردته، فأفاق البوصيري معافى . ولهذا سُميت هذه القصيدة بـ البردة" أو البَرأة أو البُرأ الداء. "**وليس في العقل ما يُحيل هذا الخبر او يبطله ، لما هو معروف في عصرنا من تأثير الإحياء والإيمان على النفوس وأمراض الأجسام مما تُعنَى به العيادات السيكولوجية.

يعتبر الحب المحمدي من أغنى الموضوعات التي شغلت ذهن البوصيري وملأت قلبه وعقله، فأفاض في القول، كاشفا عن خالص حبه للرسول عليه السلام، لأن محبة الله ورسوله أصل جميع الخيرات، وبها يقطع المريد جميع العقبات. ولهذا نجده يفصح عن هذه الثيمة بقوله في الفصل الثاني (في منع هوى النفس):

**وأثبت الوجدُ خطَّيْ عبرةٍ وضــنى مثل البهار على خديك والعنــــمِ**

**نعمْ سرى طيفُ منْ أهوى فأرقـني والحب يعترض اللذات بالألــــمِ**

**يا لائمي في الهوى العذري معذرة مني إليك ولو أنصفت لم تلــــمِ**

**عَدتْكَ حالِيَ لا سِرِّي بمســـــتترٍ عن الوشاة ولا دائي بمنحســــمِ**

والإمام البوصيري كغيره من الشعراء الفنانين، عشق الجمال وسعى إليه فكان هدفا في حياته، امتدح به وتذوقه، ونظرا لما كان يتمتع به عليه السلام من بساطة النفس التي تعتمد على الخلق القويم، يقول الإمام البوصيري (في مدح رسول الله):

**منـــزهٌ عن شريكٍ في محاســـنه فجوهر الحسن فيه غير منقســـمِ**

**دعْ ما ادعتــــْهُ النصارى في نبيهم واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم**

**وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف وانسب إلى قدره ما شئت من عظمِ**

**فإن فضل رسول الله ليس لــــه حدٌّ فيعرب عنه ناطـــــقٌ بفــــــمِ**

لابد لشعر المديح أن يوظف خطابه الصوفي، لإبراز هذا العنصر الديني الذي يخرج البطولة أو «العبقرية» من جمالها الحسي الإنساني، في هذا الإطار يقول الإمام البوصيري

**محمد سيد الكونين والثقليــــن والفريقين من عُرْب ومنْ عجــمِ**

**نبينا الآمرُ الناهي فلا أحــــدٌ أبرَّ في قولِ لا منه ولا نعــــمِ**

**نشأة البديعيات من رحم المدائح النبوية**

أما البديعيات فهي قصائد شعرية مضمونها المديح النبوي، وقالبها فنون علم البديع، الذي أكسبها هذه التسمية، لهذا الربط بين المديح النبوي والبديع مردود سلبي، أضعف الشعر وجعل متكلفاً متعملاً ثقيلاً. لعل أشهر شاعر عرف ببديعياته هو صفي الدين الحلي، إذ نظم قصيدة معارضة لبردة البوصيري، في مائة وخمسة وأربعين بيتاً، أشار فيها إلى مائة وواحد وخمسين نوعاً بديعيًّا.

**أشهر الشعراء هذا العصر**

ومن أشهر الشعراء الذين اشتهروا بالمديح النبوي في المشرق أبو زكريا الصرصري (ت 656هـ)، واليمني عبد الرحيم البرعي (ت 803 هـ).  ومن المغاربة هو مالك بن المرحل ، وعبد العزيز الفشتالي، والقاضي عياض. و من الأندلس أبو زيد الفازازي (ت 627 هـ) له مجموعة شعرية في المدائح النبوية سمَّاها "الوسائل المتقبَّلة" وهي مخمسات على الحروف الهجائية. وابن جابر الأندلسي (ت 780 هـ) وله ديوان سماه "العقدين في مدح سيد الكونين". ومن شعراء الأندلس الذين اهتموا بالمديح النبوي وذكر الأماكن المقدسة لسان الدين بن الخطيب ( 1313 - 1374م).

ومن المخمس النوني لأبي زيد الفازازي :

**بدا قمرًا مسراه شرق ومغربُ      وخُصَّت بمثواه المدينة يثرب**

**وكان                             له في سُـدّة النـور  مضـرب       نجيٌّ لـربِّ العـالمين مقــرب**

**حبيب فيدنو كل حين ويُسْتَدْنى**

## من أهم مميزات المديح النبوي مضمونا:

## إنه شعر ديني ينطلق من رؤية إسلامية.

1. **إ**نه بصدق المشاعر ونبل الأحاسيس ورقة الوجدان.
2. **إ**نه يسافر في ركاب الدعوة الإسلامية وفتوحاتها ليعانق التيارات السياسية والحزبية فيتأثر بالتشيع تارة والتصوف تارة أخرى.
3. يمدح فيه الأماكن المقدسة التي زارها الحبيب (ص) أثناء مواسم العمرة والحج.
4. يكثر فيه الدعاء والاستغفار والتوبة والشفاعة.

**8- خصائص المديح النبوي شكلا:**

1. معظمه القصيدة العمودية القائمة على نظام الشطرين ووحدة الروي والقافية.
2. ومن أهم البحور التي أستعملت كثيرا في الشعر النبوي البحر البسيط والطويل و الكامل و الوافر والخفيف.
3. وتتسم القصائد النبوية بتعدد الأغراض والمواضيع، وتتكون على مستوى البناء من المقدمة الغزلية ووصف المطية ومدح الرسول (صلعم) والتصلية والدعاء والاستغفار والتوبة.
4. على مستوى الإيقاع الداخلي، فشاعر المديح النبوي يستعمل بكثرة ظاهرة التصريع والتوازي الصوتي والتكرار الإيقاعي والجمع بين الأصوات المهموسة والأصوات المجهورة. وينسجم هذا الإيقاع الشعري بكامله مع الجو الموسيقي والنفسي والدلالي للقصائد المدحية.
5. وتمتح اللغة الشعرية ألفاظها المعجمية في قصيدة المديح النبوي من حقل الدين وحقل الذات وحقل العاطفة وحقل الطبيعة وحقل المكان وحقل التصوف.
6. المزاوجة بين الأساليب الخبرية والإنشائية قصد خلق الوظيفة الشعرية بمكوناتها الإيحائية والمجازية. ، بينما يفترض تدخل الذات وإظهار المشاعر والانطباعات الانتقال من أسلوب إنشائي إلى آخر حسب السياقات المقصدية والوظيفية.
7. ويشغل شعر المديح النبوي الصور الشعرية الحسية القائمة على المشابهة من خلال استخدام التشبيه والاستعارة، والاستعانة بالصورة المجاورة عبر المزج بين المجاز المرسل والكناية الإحالية في التصوير والبيان.